٨

اليوم الأخير

(متى ٢٦:٤٥-٢٧:٦٦ والنصوص المقابلة)

تأليف: ب. س. دين

المقدمة.- أحياناً يقال أننا نبالغ في موت المسيح على حساب حياته. هذا محتمل. ومن الممكن أن نفكر فيه بطريقة ميكانيكية صعبة، التي تفشل في جعل الصليب الحد الأقصى لمحبة الآب وحياة يسوع. ومع ذلك فهذه حقيقة مقترحة حيث لا توجد أعمال يوماً آخر في الكتاب المقدس وردت بمثل هذا التفصيل الكامل. لو كان قد كتب عن حياة يسوع كلها بمثل هذه الدقة، لكان العمل قد ملأ أربعمائة مجلدا ضخما بحجم العهد الجديد بكامله.

١. الخيانة.- نام التلاميذ الثلاثة بينما كان يسوع يصلي. ولكن يهوذا لم ينم، بل كان مشغولاً في تتميم خطته. عندما أنهى يسوع تضرعاته ورجع إلى التلاميذ، دخل يهوذا البستان مع مجموعة من الجنود مسلحين بأسلحة ومصابيح. هؤلاء الناس لا يعرفون يسوع، ولكي لا يخطؤا، أعطاهم يهوذا علامة، تقدم إلى يسوع وقال: « السلام يا سيد! » (متى ٢٦:٤٩؛ أنظر أيضاً مرقس ١٤:٤٥؛ لوقا ٢٢:٤٧)، وقَبَّلَهُ. وقع الرعب على المأجورين عندما رأوا النبي الجليلي المشهور، تقهقروا أولاً، ولكن تشجعوا أخيراً وقبضوا على يسوع وقيدوه وأخذوه معهم. وكان هذا أكثر بكثير مما يتحمله بطرس، وبضربة من سيفه، قطع أذن عبد رئيس الكهنة. ولكن السيوف سواء كانت سيوف الأصحاب أو سيوف الأعداء كانت غير مرغوب فيها على السواء وليس لها أهمية. ولم يكن لأعداءه أية مقدرة للدفاع ضد القوات التي تحت سلطانه فيما لو شاء أن يستخدمها، وأصحابه لم يفلحوا نيابة عنه ضد هدفه وضد بغض اليهود. المحبة إلهية والبغض شيطاني، أهداف الله السامية، وأهداف الناس الدنيئة، التقت كل هذه واختلطت حول الصليب.

٢. المحاكمات.- سمح الرومان لليهود كما سمحوا لكل الشعوب التي إستعمروها بقدر كبير من الحرية. ماداموا يحافظون على السلام ويدفعون الضرائب، يمكنهم أن يديروا الأمور المحلية بطريقتهم الخاصة. ولكن يحكم مجلس الدولة السجين المستحق الموت، إلا ان الحكم بالاعدام محفوظ لمحكمة روما. لهذا كانت هناك محاكمتان متميزتان ليسوع: محاكمة يهودية أو اكليركية ومحاكمة رومانية أو مدنية. وكان هناك ثلاث خطوات في كل محاكمة.

أ. المحاكمة اليهودية أو الاكليركية.- (١) المرحلة الأولى كانت الاستجواب أمام حنان. وكان حنان رئيسا للكهنة قبل عدة سنوات، ومازال اليهود يعتبرونه رئيس الكهنة وفقاً للشرع. و هو رجلاً متقدم في السن وذو نفوذ عظيم. وبعد قليل من الأسئلة، أرسل حنان يسوع إلى قيافا، ولكن ليس قبل أن يوجه له ضربة قاسية. (٢)المرحلة الثانية أمام قيافا، وهي الأكثر أهمية. كان قيافا زوج ابنة حنان وهو رئيس الكهنة الفعلي، ومثل هذا قد يكون رئيس السنهدريم أو المجلس الأعلى. وأي اجتماع للسنهدريم قبل شروق الشمس يكون غير قانوني، ولكن من الواضح أن القادة كانوا في عجلة لضمان اصدار الحكم على يسوع قبل إثارة الشعب. كان من الصعب أن يوجهوا له تهمة جديرة بالتصديق. قد قدمت بعض التهم السخيفة، ولكن لم يتفق عليها الشهود، وحافظ يسوع على سكوته الموقر. وكان الادعاء عليه في خطر الانهيار عندما صمم قيافا ليجعل يسوع يجرم نفسه، إذ سأله: « أأنت المسيح ابن المبارك؟ » (مرقس ١٤:٦٢؛ أنظر أيضاً متى

٦٤:٢٦). كان يسوع صامتاً من قبل، ولكن لا يمكنه السكوت على ذلك السؤال، فأجاب: «أنا هو.» (مرقس ٦٢:١٤؛ أنظر أيضاً متى ٤٦:٢٦)، صاح قيافا: «ها قد سمعتم تجديفه!» وصاح الحكام الحاقدين: «إنه مستوجب الموت» (متى ٦٦:٢٦؛ أنظر أيضاً مرقس ٦٤:١٤). لا بد انه كان بعد منتصف الليل بقليل عندما قبض على يسوع. وقبل الشروق وقضى الفاصل حتى الانعقاد الكامل لمجلس السنهدريم في استهزاء ضار للسجين غير المقاوم. (٣) المرحلة الثالثة أمام المجلس بكامل أعضاءه وكان تصديق رسمي فقط لما كانوا قد توصلوا إليه من قبل.

في وقت ما خلال المراحل الأولى تم نكران بطرس. كان بطرس قد تسلل إلى الداخل مع يوحنا ليكون بالقرب من سيده وليرى الإجراءات. كانت الحالة محفوفة بالمخاطر، وخضع بطرس للرعب عندما أشير إليه باحتقار انه جليلي، أنكر ربه ثلاث مرات، مضيفاً القَسَم إلى النكران. يا له من مسكين! ولكنه لم يكن قد ضل ضلالا بلا رجاء. فان صياح الديك وتذكره لنبوءة يسوع ولكبرياءه مع نظرة يسوع الهادئة الحزينة إليه عندما كان يعبر ساحة قصر قيافا، كل هذا أعاده إلى نفسه، «... فخرج إلى الخارج وبكى بكاء مرا» (متى ٧٥:٢٦).

كان هناك مشهد جانبي أكثر حزنا وأكثر رعبا، إذ أن يهوذا كان يراقب الإجراءات أيضا. ربما كان قد تمنى أن يفلت يسوع من أيديهم ويعلن مجده، ولا شيء يؤذي السيد بينما يربح هو لنفسه ثلاثين من الفضة. ولكن أنهيت المراحل الثلاث للمحاكمة عند اليهود، وحكم على يسوع بالموت المطلوب هو تصديق الحكم الذي يصدره بيلاطس فقط. وطوق الندم يهوذا وكانت هذه الثلاثين من الفضة تلهب أعماق نفسه. اسرع أمام المجلس وطرحها على الأرض قائلاً: «قد أخطأت إذ سلمتُ دماً بريئاً» (متى ٤:٢٧) «هذه مشكلتك وليست مشكلتنا» هي الإجابة الصارمة. يُحتقر الخائن دائماً كأداة من قبل مستخدميه. فخرج وشنق نفسه (متى ٥:٢٧؛ أعمال ١٨:١ و ١٩). لماذا لم يذهب في ذلك الوقت ويلقي نفسه تحت قدمي يسوع لينال بركة الغفران؟ الندامة ليست هي التوبة، يمثل يهوذا {الندامة} ويمثل بطرس {التوبة}.

ب. *المحاكمة الرومانية أو المدنية*.- لهذه المحاكمة أيضاً ثلاث مراحل. (١) أمام بيلاطس: كان سؤال بيلاطس الأول هو: «ما هي التهمة؟» كانت التهمة بالتجديف التي اتهمه اليهود بها لا تنفع أمام المحكمة الرومانية. حاولوا أولاً أن يضمنوا حكم بيلاطس باتهامات غير واضحة، ولكن بالعدل الروماني، أصر بيلاطس أن تقدم له تهم واضحة، فقالوا: «وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك» (لوقا ٢:٢٣). كانت هذه تهمة كاذبة، واقتنع بيلاطس سريعاً أن يسوع لا يدعي بالسيادة بأي مفهوم سياسي خطر فأعلن عن برائته. وأما هم لم يقبلوا هذا، فالقوا تهمة رابعة بانه يثير الشغب من الجليل وحتى أورشليم. بهذا وضعوا بيلاطس في مأزق، إذ لم يكن يرغب لإدانة إنسان بريء، خاف أن يغيظ اليهود، ولكنه انتبه لكلمة الجليل، لأن ذلك كان اقليم هيرودس، وكان هيرودس نفسه في المدينة. وكانت هناك عداوة بين الحاكمان، و كانت تلك فرصة نادرة ليظهر لهيرودس اللطف ويصفي العداء، وفي الوقت نفسه يتخلص من قضية غير مرغوب فيها وخطيرة. لهذا أرسل بيلاطس يسوع إلى هيرودس. (٢) أمام هيرودس: اشتاق هيرودس ليرى يسوع، متمنياً أن يرى معجزة ما. ولكن يسوع وهو يعمل على حسب المبدأ الاخلاقي له وذلك أن لا يلقي اللؤلؤة أمام الخنزير، ولم يرد بكلمة واحد على كل أسئلة هيرودس. ثم حدث السخرية الثانية، فقام هيرودس وجنوده المتوحشون وألبسوا يسوع لباس ملوكي قديم وأرسلوه إلى بيلاطس مرة أخرى. (٣) أمام بيلاطس للمرة الثانية: في ذلك الوقت، بدأت الجماهير بضجة تطالب بأطلاق سراح أحد السجناء، كان هذا عمل الرحمة في عيد الفصح السنوي. فرشح بيلاطس أطلاق يسوع. ولكن الكهنة والناس كانوا يطالبون بغير ذلك. دخل يسوع المدينة في مقدمة موكب النصر، ويسوع الذي أدين من قبل

السنهدريم في انتظار حكم بيلاطس وكان هناك شخصان. «ليس هذا، بل باراباس. وكان باراباس لصاً» (يوحنا ١٨:٤٠). قاوم بيلاطس إلى حين مع الجمع ومع ضميره، ثم أذعن وأعطى أمراً بصلب يسوع، وفي خلال هذا الوقت أستهزأ به جنود بيلاطس، وألبسوه رداء أرجواني وضفروا له إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه ووضعوا قصبة على يمينه.

هكذا تصل المحاكمة ذات الستة مراحل إلى نهايتها، وفيها وقفت الخيانة والرياء والجُبْن والأنانية والعمل الوحشي في تناقض أبدي مع طبيعة يسوع الإنسانية.

في ذلك الوقت كان هناك إنسان في رداء ملوكي يستهزيء به ويواجه الإهانة الساخرة من الجموع، كان هو ملكاً مئة ضعف أكثر من كل من جلس على عرش هيرودس أو من لبس تاج القيصر على الأطلاق.

٣. الصلب.– *أ. الساعة والمكان.*– كانت الساعة نحو التاسعة صباحاً عندما أصدر أمراً بالصلب تألم يسوع خارج المدينة (عبرانيين ١٣:١٢) في موقع يسمى بالعبرية جلجثة، وباليونانية كرانيون، وباللاتينية كلفاريوم، وبالعربية الجمجمة. ربما كان هذا الموقع هضبة صغيرة دائرية الشكل تشبه الجمجمة تقع إلى الشمال الغربي من المدينة.

ب. *في الطريق.*– مضى يسوع حاملا صليبه، ولكن قبل الوصول إلى الجلجثة، طلب الحراس من شاب قيرواني حمل صليب المسيح، ربما لأن وزن الصليب كان ثقيلاً جداً على يسوع الذي أنهكه التعب إذ قضى الليل ساهراً في الصلواة وتحمل آلام الصباح. في تلك الساعة الداكنة، كان البعض ينوحون على هذه الكارثة التي وقعت به. الشفتين اللتين صمتتا طول هذه الفترة تحت الإساءة، نطقتا الآن بشفقة ليس على نفسه، بل على الذين سيسحقون قريباً في خراب أورشليم الوشيك الحدوث.

ت. *عند الصليب.*– صلب معه لصان. كان الصلب هو طريقة الاعدام عند روما للمجرمين الدنيئين جداً. بسبب الشفقة، كانت نساء أورشليم قدتعودن على تجهيز شراب مخدر لمثل هذه الأحداث. قدمت مثل هذه الجرعة. ولكن يسوع رفض أن يشوه قوته الجسدية حتى لو كان هذا لتخفيف أوجاعه.

ث. *العبارات السبع التي قالها يسوع وهو على الصليب.*– هناك سبع عبارات مسجلة قالها يسوع من على الصليب: (١) ربما قال أول هذه العبارات في هذه اللحظة. سمر جسده أولاً على الصليب، ثم رفع وثبت بعنف في مكانه. «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون!» مشيراً إلى الجنود القساة الذين جلسوا بعد وقت قصير ليلقوا القرعة على ثوبه. كان بيلاطس قد أعدة بضع لافتات لتوضع فوق صليب الضحايا، واللافتة التي وضعت فوق صليب يسوع والمكتوبة بالعبرية واليونانية واللاتينية قصد بها بيلاطس أن يوجه وخزة لليهود وقد شعروا بها: «يسوع الناصري، ملك اليهود» احتجوا على ذلك ولكن بدون فائدة. (٢) وقفت أُم يسوع ومريم المجدلية ومريم أُم يعقوب مع يوحنا قرب الصليب. فوجه عبارته الثانية لأمه قائلاً: «يا امرأة، هوذا ابنك!» وليوحنا قال: «هوذا أُمك!» مازال مهتماً بالآخرين عوضاً عن نفسه. (٣) والآن يبدأ مشهد التعالي المقيت بالمقارنة بالضعف انضم رؤساء الكهنة والكتبة والحكام ورؤساء الأمة في الحشد الساخر مثل هذا المشهد يجتمع دائماً معاً. «خلص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها» (متى ٢٧:٤٢؛ مرقس ١٥:٣١؛ لوقا ٢٣:٣٥)، حقيقة أعمق مما افتكروا بها: لأنه كيف يمكنه أن يخلص نفسه إن كان عليه أن يخلص الآخرين؟ حتى اللصين البائسين على الصليب، شارك كلاهما في التجديف أولاً، حتى تحنن أحدهما وتاب بسبب الآلام التي لا مبرر لها، حول نظره إلى صليب يسوع بالصلاة قائلا: «اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك» (لوقا ٢٣:٤٢). صادق لإسمه ولمهمته حتى النهاية، نطق يسوع بالكلمة الثالثة من على الصليب: «الحق أقول لك، إنك اليوم تكون معي في الفردوس» (لوقا ٢٣:٤٣). (٤) ومن ثم من الساعة ١٢ إلى الساعة ٣ بعد الظهر حل ظلام وسكون

لمدة ثلاث ساعات. انه وقت ذبيحة المساء، عندما خرجت من الظلام ومن على الصليب الشكوى الأولى والأخيرة إلى السماء من تلك الشفتين الصابرتين، خرجت الكلمات الهزيلة: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (متى ٤٦:٢٧؛ مرقس ٣٤:١٤). وتبع ذلك باقي تلك العبارة: (٥) «أنا عطشان» (يوحنا ٢٨:١٩) هذا هو أول وآخر تعبير عن آلام الجسد. وقد رد الرعب القلوب القاسية إلى اللطف، وقبل يسوع كأس الخل. وتكلم مرة أخرى (٦) «قد أكمل» (يوحنا ٣٠:١٩)، لم تكتمل أشرف حياة على الأرض فحسب، بل عمل الخلاص للجنس البشري، قد أكمل، بمفهوم دنيوي أعمق مما فكر به الآباء والأنبياء على الاطلاق، نماذج ورموز ونبؤآت العهد القديم. (٧) ونكس رأسه بالعبارة السابعة والأخيرة من على الصليب وأسلم روحه: «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي» (لوقا ٤٦:٢٣).

ج. *نهاية العهد القديم*.- في لحظة صرخته ليلفظ روحه، حدثت زلزلة، وانشق حجاب الهيكل من أعلى إلى أسفل، لأن صليب يسوع يضع نهاية للعهد القديم بنماذجه و ظلاله (كولوسي ١٤:٢). امتلأ الناس رعبا. حتى قائد المئة الروماني قد أُجْبِر ليقول: «حقا كان هذا ابن الله!» (متى ٥٤:٢٧؛ مرقس ٣٩:١٥).

٤. الدفن.- كان اليوم الذي يلي يوم الصلب هو السبت، يمكن لليهود أن يرتكبوا جريمة قتل ولكن لا يمكنهم انتهاك السبت، لا يجب ترك الأجساد على الصليب بعد غروب الشمس. ولاستعجال الموت تكسر الأرجل، ولكن كان يسوع قد مات كما وضحت ذلك قطرة الدم التي تابعت طعن الحربة وهكذا تم تحقيق نبؤتين من غير علم: «يحفظ جميع عظامه، واحد منها لا ينكسر» (مزمور ٢٠:٣٤)، «لأنه قد احاطت بي كلاب، جماعة من الأشرار اكتنفتني، ثقبوا يديّ ورجليّ. أحصوا كل عظامي، وهم ينظرون ويتفرسون فيّ» (مزمور ١٦:٢٢ و ١٧). أخذ جسد يسوع اثنين من تلاميذه: يوسف الذي من الرامة ونيقوديموس، أعدته للدفن أيدي محبة في قبر يوسف الجديد، وعند الطلب من قبل اليهود الذين مازالوا خائفين، أمن الختم والحرس الروماني القبر.

جميع الحقوق محفوظة ٢٠٠٧